الفصل التاسع

عودة الروح إلى الحق

مذهب أفلوطين

"لنفتح عيون الروح بإغلاقنا عيون الجسد، كيما نرى ثانية الوطن العزيز، حيث الواحد الأعلى".

أفلاطون

امتزاج الفلسفة بالدين

تحدثنا في الفصل السابق عن "الحدس" كمحاولة لتخطي حدود العقل القاصر عن بلوغ الحقيقة في كمالها، تلك هي المحاولة التي قام بها برجسون في العصر الحديث. وتاريخ الفكر مليء بأمثال تلك المحاولات التي قام بها أصحابها يأساً من كفاية قوى العقل والإدراك. وأشهر تلك المحاولات، محاولة "أفلوطين" فيلسوف الإسكندرية في القرن الثالث بعد الميلاد.

ونحن إذا تحدثنا عن مدينة الإسكندرية في ذلك العهد، فإنما نتحدث عن المركز الثقافي الأول في العالم المتمدين القديم، حيث التقت ثقافة اليونان العقلية، بثقافة الشرق الروحية. وقد كان ذلك الامتزاج بين

الثقافتين نتيجة طبيعية للأحداث التي جرت قبل ذلك الحين في ربوع اليونان والشرق على حد سواء. أذكر منها زوال استقلال اليونان بعد موقعة "فيرونيا" سنة ٣٣٨ قبل الميلاد، وتغلب مقدونيا وسيطرتها على اليونان، فضلاً عن سعيها إلى غزو الشرق أملا في إنشاء إمبراطورية توحد بين الشرق والغرب. وقد سبب تغلب مقدونيا، والتفات الإسكندر إلى الغزو الحربي والثقافي، ميلاً قليلاً للفلسفة المجردة، كتلك التي وجدناها عند أفلاطون وأرسطو، وأصبح الناس في حاجة إلى متاح للروح لا للعقل فحسب، أصبح الناس في حاجة لا إلى ميتافيزيقا، ولكن إلى نوع من الترياق الخلقي والديني، كما يقول بعض مؤرخي الفلسفة.

لهذا نرى في أعقاب الفلسفة الأرسطية، نزعة خلقية أو دينية أو روحية نشتم فيها رائحة الشرق. وقد تمثلت تلك النزعة في فلسفة الرواقيين والأبيقوريين والمتشككين، وأخيراً– وهذا ما يهمنا– في فلسفة أفلوطين التي تمتزج فيها الفلسفة بالدين امتزاجاً واضحاً. جاءت فلسفة أفلوطين انعكاساً بينا لروح العصر التي تبغي تحريراً من القلق الروحي والتشكك العقلي، والاستناد إلى يقين ديني يعيد للروح اتزانها، ويحقق التوازن والطمأنينة العقلية والتجاوب مع النظام الطبيعي؛ وبالاختصار يحقق تلك الخصال التي تتميز بها العقلية الهللينيه (اليونانية).

الفيض الإلهي

يتصور أفلوطين (شأن اليونانيين جميعاً) العالم كلا واحداً متسقاً، خاضعاً لنظام كلي جبري محكم، فلا شذوذ ولا صدفة. إنما الكائنات جميعاً مرتبطة فيما بينها طبقاً لتدبير عقلي وحكمة منبثة في جنبات الكون جميعاً. ذلك أن الكائن الأعلى الواحد الخير فاض بحكم كماله وخيريته على العالم، فكان "العقل" الذي يرمز إلى النظام الثابت المطرد الذي تتضامن أجزاؤه. والعقل بحكم صدوره عن الكائن الأعلى فيه من كماله وخيريته ما يجعله– إذا تأمل مصدره– يفيض بدوره فتكون "النفس الكونية"، وهي تتغذى بمشاهدة العقل الذي صدرت عنه، فتصبح قادرة بفضل مشاهدتها له على تدبير المادة وفقاً للنظام الذي تتأمله. وعن هذه النفس تفيض "نفوس الكواكب" التي ينظم كل منها جزءاً من المادة هو البدن الذي تحل فيه، أو المادة التي تعتبر أسفل السلم.

وهكذا يبدو لنا من نظرية فيض الكائن الأعلى للعالم على نحو متسلسل، كيف ترتبط الموجودات جميعاً من أسفلها وهي المادة، إلى أسماها وهو "الواحد" برباط عقلي محكم لا ينحرف؛ وكيف أن الكائن الأعلى يصدر عنه ما هو أدنى بمقتضى ضرورة طبيعية فيه لا بإرادته؛ وكيف أن ما هو أدنى يفيض هو بدوره بفضل تأمله ومشاهدته لما هو أسمى، أي بفضل تشبثه بمصدره السامي واتحاده به اتحاداً روحياً. وعلى هذا النحو يصدر عن أكمل كائن ما يليه في الكمال، وهذا الأخير يصدر عنه غيره، وهكذا في سلسلة تنازلية حتى نصل إلى عام المادة والأجسام.

مصدر الشر

في هذا العالم السفلي شرور ونقائص، علتها تعدد المادة وتغيرها وبعدها عن العالم العلوي حيث الوحدة والثبات. وقد انغمست الروح في المادة، ولحقت الروح النقائص لاتصالها بالبدن، وتعلقها وتشبثها به. ما مصدر الشر إذن؟

إن العالم العلوي لا شر فيه؛ لأنه ثابت خاضع لنظام عقلي موحد؛ والشر في العالم السفلي راجع إلى سيطرة الفوضى على النظام، سيطرة المادة على الروح. ولكن يتساءل أفلوطين: من المسئول عن هذه السيطرة، أهي المادة السلبية المستسلمة للنظام الكلي؟ أم الروح التي ليست من هذا العالم بل فاضت وصدرت عن العالم العلوي لتدبر شئون البدن؟ لاشك أن المسئول عن ذلك هي الروح إذ سمحت لنفسها بالخضوع لضرورات البدن: تدرك بحواسه، وتجري وراء شهواته، وتتقيد بقيوده الجسدية. في حين أن طبيعتها تتطلب الخضوع للنظام الكلي، والإدراك الروحي الخالص، والسعي إلى خيرها الخاص الذي هو خير النظام الكلي. خضوع الروح للبدن انفصال عن النفس الكلية التي ينبغي أن تتشبث بها، ولا تشاهد إلا إياه، وتدبر البدن وأعضاءه ووظائفه بمقتضى تأملاتها فيما هو أسمى.

الخير إذن يقتضى أن تنتزع الروح نفسها من البدن، وتخضع للنظام الكلي، وتسمو إلى الحقيقة العليا. الغاية الحقيقية للروح هي التأمل حتى يتحقق فيها خصائص العالم المعقول، وينمحي من صفحتها ما انطبع فيها

من آثار العالم المادي المحسوس. والتأمل هنا هو التأمل العقلي الصرف، الذي لا يشوبه إحساس بدني، أو انشغال بالموجودات المادية؛ هو تأمل "الواحد" الذي صدر عنه النظام الكوني، وتركيز الفكر فيما هو عقلي صرف، تركيزاً تخرج بفضله الروح لتصعد إلى أصل الأشياء، فتتحد به، وتفني عما عداها من كائنات أرضية ناقصة. وذلك هو التصوف، الذي يتخذه أفلوطين وسيلة لبلوغ الحقيقة الأولى، التي تنطوي على الكون بأسره ويكمن فيها النظام الأبدي للكائنات جميعاً، التي صدرت عنه بحكم كماله المطلق، وخيريته الفائقة. وفي هذا الاتحاد البهجة العظمى والسعادة القصوى التي تبعدنا عنها لذات الجسد وشهواته لأنها اندماج في المادة، واستقلال عن النظام الكوني المعقول[1].

انفصال الروح والجسد

هذه النظرية المنسوبة إلى أفلوطين، والتي يستقى فيها الأخلاق من الميتافيزيقا، ترجع إلى فلسفة أفلاطون مع تأثر بالفلسفة الفيثاغورية والفلسفة الرواقيه. ولكن المصدر الأول الذي يستقى منه أفلوطين نظريته الصوفية، هو أفلاطون. وهذا هو السر في تسمية فلسفة أفلوطين بالأفلاطونية الحديثة. فلو شئنا إذن فهما دقيقاً لفكرة الصعود إلى الحقيقة الأولى فلنعد بالفكرة إلى مصدرها الأصلي، في محاورة "فيدن" الأفلاطونية.

---

[1] أنظر كتاب "من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث" ترجمة الدكتور مندور. وتاريخ الفلسفة اليونانية تأليف يوسف كرم.

لم يكن أفلاطون كالفلاسفة المسيحيين أو أرسطو، في قولهم إن الإنسان مركب من النفس والجسم، ولكنه تصور الإنسان تصور ثنائياً، فالإنسان في نظره نفس أو روح اتحدت عرضاً بجسم هو لها بمثابة سجن، لن تتحرر منه تحرراً نهائياً إلا في العالم الآخر، حين تنفصل عن البدن وتصعد إلى مقرها العلوي، حيث الوجود الثابت الأزلي. ذلك أن الروح في نظر أفلاطون ليست من هذا العالم، ولكنها من عالم الموجودات الأزلية، كانت تنعم فيه بتأمل المثل: الكمال المطلق، والجمال المطلق، والخير في ذاته الخ.. ثم ارتكبت إثماً هبطت على إثره، وحلت في سجنها البدني، ريثما تكفر عنه. معنى ذلك أن اتصال الروح بالبدن ليس أمراً تقتضيه طبيعة الأشياء، بل يتنافي مع النظام الكوني كيفما تراءى لأفلاطون. ولكن هل ينتظر الإنسان ساعة الموت حين تتحرر النفس نهائياً من شرور البدن؟

يجيب أفلاطون: إن الفيلسوف الحق هو الذي يجهد كي ينزع النفس من الاتصال بالبدن، وإن الفضيلة عبارة عن فصل الروح عن لذات الجسد. والمعرفة الحقة في رأيه ليست المعرفة التي تأتينا عن الحواس؛ فالحس وظيفة الجسد، والرابط بيننا وبين العالم المادي. إنما المعرفة الحقة هي التأمل العقلي في المعاني الكلية. وفي ذلك يقول في فيدون[1] "إن أحسن معرفة ممكنة هي المعرفة التي لا تتقيد فيها بالبدن. فالروح إذ تسعى إلى المعرفة، يتدخل البدن فيعوقها بوظائفه كالإبصار والسمع والألم والشهوة. وكل هذه تضايق الروح فتعوقها عن المعرفة الحقة فضلاً عن أن البدن يملأنا بالأهواء،

[1] الترجمة الفرنسية صفحة ٤٠ لبول لومير.

والرغبات والمخاوف، وآلاف الخيالات والحماقات... فماذا يولد الحروب، والفتن والخلافات إلا أن يكون الجسد وشهواته؟ الحق أن جميع الحروب لا تنجم إلا عن الرغبة في تكديس الثروات. والبدن هو الذي يدفعنا إلى تكديسها، طالما نحن عبيد لحاجته: وهذا هو السبب في أننا لا نفرغ فراغاً كلياً للفلسفة وما أن يدع لنا قليلاً من فراغ، فنشرع في التأمل، حتى يعود فيرتمي دفعة واحدة في غمرة بحوثنا، فيشتتنا، ويربكنا، ويملأنا بالغفلة، حتى ليحول بينا وبين تمييز الحقيقة. لقد تبين لنا إذن أنه إذا أردنا ن نعرف شيئاً معرفة حقه، تعين علينا أن ننفصل عن الجسد، ونتأمل بالروح وحدها الأشياء في ذاتها[١]".

وما دامت الرابطة التي تربط النفس بالجسم رابطة عرضية، وجب أن تتخلص النفس بقدر طاقتها من الجسد، فتزاول وظيفتها مستقلة عنه.

وكان كل ما يتصل بالجسم، من معرفة أو رغبة مصدر ضيق للنفس، ومعوق لها عن العمل. فالمعرفة مستحيلة إن حاولنا ذلك بوسائل الجسم (الحواس) التي توقعنا في الخطأ وتضللنا؛ فهي فضلاً عن الأخطاء التي تقع فيها، تطلعنا على الموجودات المادية، وليست تلك الموجودات إلا ظلالاً وأشباحاً للموجودات الحقة التي يدعوها أفلاطون: المثل، أي النماذج الأزلية التي صنعت الأشياء على غرارها، دون أن تضارعها أو ترقي إلى مستواها في الكمال والجمال. وبذلك يصل أفلاطون إلى نظرية الانفصال العقلي باعتباره الوسيلة الوحيدة لمعرفة الحقيقة الأزلية. ومن هذه النظرية

---

[١] الترجمة الفرنسية صفحة ٤٠ لبول لومير Paul Lemaire

استقى أفلوطين نظريته في المعرفة التي تهدف إلى اتحاد الروح بالواحد الأسمى بعد جهود تأملية متواصلة، يبذلها الإنسان متأملاً النظام الكوني، متغافلاً عن العالم الواقعي. فهل استند أفلوطين إلى أساس مكين؟!

أخطاء الفلاسفة المثاليين

الأساس الذي استند إليه أفلوطين، يعتنقه الفلاسفة المثاليون الذين يسعون إلى يقين منطقي صرف، منكرين أو متجاهلين الواقع الذي تعكسه الحواس. المعرفة الصحيحة في رأيهم ما استند إلى يقين العقل المجرد دون الحواس. فالمعرفة العقلية يقين بينما الحسية ظن فحسب. هذا المذهب ناتج عن فهم خاطئ لطبيعة العقل، وفصل وهمي بين المعرفة الحسية والمعرفة الاستدلالية. فالحقيقة أن المعاني المجردة نتيجة التفاعل بين الذات والعالم الخارجي عن طريق الحواس "النوافذ التي نطل منها على العالم الواقعي". كل معنى مفهوم جرده العقل من الصفات الحسية، وهو لذلك ناتج عن الإدراك الحسي. ما كنا لنصل إلى معنى "إنسان" ما لم ندرك حسياً أفراداً يشتركون في هذه الصفة، فيجردها العقل ويتأملها خالصة من خواص المادة.

هذا المعنى يبدو كاملاً لأنه يتغاضى عما يشوب الأفراد المشخصة التي يطلق عليها من نواحي نقص، وهو ثابت لأنه تكون نتيجة استبعاد الصفات العرضية المتغيرة في الأفراد. فكلمة "جمال" معنى ينطبق على جميع الأفراد التي تتحقق فيها صفة الجمال، ولكن أي كائن جميل لا يمكن أن

يبلغ في جماله ذلك المعنى العقلي. وهذا هو السر الذي جعل أفلاطون يتورط في خطئه الأكبر. إذ لما اختبر المعاني الذهنية، وشرع يقارن بينها وبين الجزئيات، لاحظ كمالها وثباتها ونقص الجزئيات وتغيرها، فاعتبرها الأصل واعتبر، الكائنات صورها الشائهة، والأشباح التي تحاكيها.

والحق أن العمليات الحسية والعمليات العقلية وثيقة الصلة في عملية المعرفة– على خلاف ما ظن أفلاطون. ونحن لا نصل إلى المعاني المجردة إلا بعد عمليات الإدراك الحسي والمقارنة والتخيل، ثم بمجهود عقلي نجرد المعاني. مثال ذلك أن الخير بالمعنى الحسي أي اللذة، ندركه بالحواس مباشرة، فهو بهذا المعنى مستمد من خبرتنا. أما الخير المطلق فهو المثل الأعلى، هو كمال الخير الحسي، وفكرتنا عنه مستمدة من فكرتنا عن الخير الحسي، بأن نستبعد ما فيها من نقص، ونستخلص فكرة سلبية هي الخير المطلق. وكذلك الكمال المطلق المثالي. فكرتنا عنه مستمدة من إدراكنا لأشياء حاصلة على كمال نسبي. وفكرة الوجود، مستمدة من إدراكنا للأشياء الموجودة فعلاً. وبالتأليف بين هذه المعاني المجردة: الوجود والكمال والخير، تتألف فكرة الله التي اعتبرها أفلاطون مثال المثل، ونسى أصلها المتواضع، ثم صاح "ينبغي أن نصل إلى الحقيقة بالنفس وحدها" يسعى أفلاطون إلى الحقيقة بالعقل وحده، ويتجاهل بقية القوى، وحجته في ذلك أن إشراك الجسد أو ما يتصل به من قوى "يضلنا ويوقعنا في الخطأ".

من أي مصدر إذن نستمد العلم إذا كان علينا أن نخلي الذهن من كل ما هو حسي أو مستمد من التجربة؟ يجيب أفلاطون وغيره من

المثاليين: إن مصدر المعرفة ليس موجوداً في العالم الخارجي المادي، بل في العقل ذاته، حيث تلك الأفكار الأولية التي فطر عليها العقل، والتي غرست فيه منذ الأزل. تلك هي المنابع الأولى التي نستمد منها العلم بالأشياء. تلك الأفكار كالعلية، والذاتية، والوجود، والوحدة، والكمال إلى آخر تلك التي على أساسها يدرك العالم الواقعي وليس العكس.

هنا يكمن الخطأ، إذ أن أي تحليل منطقي لهذه المعاني يكشف عن مصدرها الحقيقي وهو الحواس التي تصلنا بالعالم الخارجي. هذه الأفكار الذهنية الصرفة يبني منها أفلاطون عالمه الذي يتصوره. ميتافيزيقا أفلاطون على هذا الأساس ميتافيزيقا من الصيغ المنطقية. ومهما ألفنا بين هذه الأفكار المفرغة، المجردة، فلن يقربنا ذلك من واقع الوجود قيد أنملة. ذلك أن الوجود الحقيقي لا يستمد من الوجود الذهني؛ والوجود الذهني (المعاني) مستمد من الوجود الواقعي المحسوس، أو هو الوجود الواقعي في صورة ذهنية مجردة وليس العكس.

ذلك الخطأ وقع فيه أفلوطين، فهو بدوره حين أراد إدراك الحقيقة، لم يبدأ بالعالم الذي يعيش فيه بجسده وعقله، بل بدأ بالمعاني الأولية، البسيطة الخالية من الحياة، واعتبرها المصدر الذي يستقى منه العلم بحقيقة الوجود. فيؤلف بين هذه المعاني، ويصعد إلى أعلى من علة إلى علة؛ أي يمعن في التجريد، حتى يصل في نهاية تجريده إلى أعم المعاني، وأكثرها تجريداً، وأبعدها عن الواقع الملموس وذلك هو معنى الوجود. ثم اعتبر هذا المعنى

لأنه أبعد المعاني عن العالم المحسوس، مبدء جميع الموجودات، وكيف لا، وبه من الوجود قدر ما في الكائنات الأخرى مجتمعة!.

وهكذا يصبح العالم الذي يتصوره الأفلاطوني الحديث متأثراً بروح "فيدون"، عالماً من الأفكار؛ وتصبح فلسفته الميتافيزيقية ضرباً من العبث المنطقي، وانطواء مغلقاً على العقل يجتر ما فيه من أفكار يبني العالم منها. ويتجاهل إذ يمعن في انطوائه الفكري هذا، الحقيقة الواقعة التي تصدم الحواس، ولا تفتأ تترك آثارها فيها– ظناً أنه إذ يتغلغل في عالم الفكر، إنما يقترب من الحقيقة، بيد أن الواقع أنه إذ يمعن التأمل في الأفكار المجردة إنما يمعن في الابتعاد عن الحقيقة.

طريق القلب

ومما لا شك فيه أن فيلسوفاً هذا شأنه، لابد أن يشعر– شأن أستاذه– بوثبات حارة للمعرفة، ولابد أن يشتعل حباً للحقيقة، ولابد أن يشتهي الصعود إليها، كي يتملكها بجماع روحه، لا بل ويعانقها ويتعمقها ويفني فيها. بيد أن صعوبة تعترضه: فالحقيقة تفلت من قبضته، ولا يمسك إلا بمعان ذهنية فحسب، ولا يستطيع أن يهتدي إلى السبيل الذي يفضى به من المعاني الذهنية إلى الوجود الواقعي.

هذه الصعوبة، نتصورها نحن الواقعيون الذين نستند في معرفتنا إلى الاتصال الوثيق بين الحواس والعقل. أما الأفلاطونيون في جميع العصور، فيسرون إلى أنفسهم عندما تعترضهم هذه الصعوبة: "إن للقلب أسباباً

وطرقاً يجهلها العقل". فإن كانت الحقيقة تفلت من العقل، فهناك القلب لا يفلت منه شيء، هنالك الحب يعانق موضوعه بنظرة بسيطة، وفي لمحة واحدة يحيط بما لا يحيط به العقل إلا بعد استدلالات طويلة. لأقرب ذلك للأذهان، أذكر مثال معرفة الله. فكيف يثبت العقل وجوده، لابد من عمليات استدلالية عدة: مقدمات ونتائج وأفكار تنبني عليها أفكار حتى يوقن العقل بوجوده. ولكن الإيمان بالقلب ليس في حاجة إلى كل تلك العمليات العقلية، ويكفيه ذلك الرضا، وذلك الاطمئنان، وذلك اليقين، دون حاجة إلى دليل أو برهان وكذلك المحب، ليس في حاجة إلى دليل يؤكد له كمال الحبيب، وإنما هو يدرك ذلك الكمال بيقين قلبي بسيط، دونه أي يقين عقلي.

وطبيعي على نفس يتملكها حب الحقيقة، ولكنها تعجز بوسائل العقل عن بلوغها، أن تمضى في طريق آخر، بسيط كل البساطة، مريح غاية الراحة، ذلك هو طريق القلب. وما عليها– إن أرادت– إلا أن تغمض العين، وتسكت صوت العقل، وتترك العنان للقلب، يخفق خفقاته، ويثب وثباته المؤدية إلى قلب الحقيقة حيث تستقر النفس، وتتلاشى في غمارها وبذلك يتم الاتحاد، هدف كل قلب، ويتحقق الحلم هذا الحلم الحلو اللذيذ يوفره لنا التصوف الذي انتهت إليه الأفلاطونية الحديثة، التصوف الذي "يفتح عيون النفس ليغلق عيون البدن، كما يرى الوطن العزيز مرة أخرى، ويتحد بالواحد الأسمى".